الشباب العربي بين الحُلم والحقيقة - إبداعٌ من رَحم المعاناة

بقلم: د. يوسف صفوري

شوقُ الجنين إذا اشرأب من الظلام إلى الولادة" هكذا تبدأ مسيرة كل إنسان انطلاقاً من الرحم مُلتقطاً أنفاسه الأولى وكله شوقٌ للإشراق ما بعد شهور الظلام، وصوتٌ جديدٌ يدُبّ في الأرجاء عالياً ليقول ها أنا قد أتيت إلى عالمكم مُثبتاً لوجوده قائلاً: "أنا كيان."

أنا كيان: فطرة الوجود ابتداءً وانتهاءً بالظلام؛ هي فطرة الخالق في سائر الخلق بأساسٍ واضحٍ وهو حب الحياة. من هذا المنطلق تبدأ مسيرتنا بمنهج الاستمرارية مُتدرّجين في مراحل العمر من الطفولة إلى الشيخوخة وما بينهما من كامل العطاء في مرحلةِ القوة ما بين الضّعفَيْن - مرحلة الشباب- وما يلازمها من المسؤولية تجاه النفس والأسرة والمجتمع، وما بين مسؤوليةٍ ومسؤولية يكمن سر شبابنا العربي.

وقوفاً عند مصطلح المسؤولية، لا بد من تحديد الأدوار رجوعاً إلى الطفولة ببراءتها الخالية تماماً من مسؤوليةِ الطفل، والكاملة من مسؤوليةِ الأسرة والمجتمع؛ فيَستيقِظ الطفل على واقعٍ أليم في منظومةٍ أساسها مجتمعٌ منحدرٌ غير متكامل، وأسرةٌ مبنية على ذلك الأساس، ولا شك في أن هذه البيئة لا تمُتُّ إلى العطاء تجاه الطفل بصِلة، انتقالاً إلى بداية الوعي لدى طفلٍ غير مسؤول، تأتي صدمة التحديات التي تجوبه حتى قبيل المراهقة، منتهياً به الأمر إلى واقع مرير - طفل التحديات - وكله حباً للحياة، و-مراهق التحديات- وما زال محباً للحياة .

هذا هو واقع الولادة لدى أُسَر مجتمعاتنا المُرهَقة - الولادة من الخاصرة-!! ولولا براءة الطفولة لفضّل الطفل الرجوع إلى الظلام !!

تلك البراءة التي قتلها المجتمع وقتل معها الحلم ليترك حقيقةً لا تليق بفطرة حب الحياة، ويكبر الطفل ليصبح (ذلك) الشاب -ذلك الشاب وكأننا نشير إليه من بعيد دون تسليط الضوء عليه- لبنة المجتمع الأساسية المهمشة، يكبر بمزيد من التحديات والصعوبات الحياتية المُرهِقة.

وقوفاً عند مصطلح التحديات لا بد من التفريق بين تحدياتِ مسؤولية الشاب وعطائه أمام نفسه ومستقبله، وبين تحدياتٍ من ذات الأسرة وذات المجتمع عديم المسؤولية له أثناء الطفولة، لا بل مُغيّبا لحقوقه في النمو والبناء، وقاتلاً للطفل وأحلامه، لا بل قاتلاً أيضاً لذلك

الشاب حيث يطالبه الآن بالعطاء... إضافةً إلى تحديات دخيلة ممن يبغض مجتمعاتنا ونجاحها ويستهدف الشباب عمداً وقصداً مستخدماً الفكر المسموم والغزو الظلامي على هذه الفئة بشتى الوسائل والسبل، ولا يزال الشاب سانداً لنفسه أملاً وألماً شامخاً على الرغم من هذه الدوامة التي يعتليها للنفاذ من لعنتها بدلاً من الغرق بداخلها، فهو لا يعرف الفشل ففطرته هي الطموح. ..

مخطئ من يظن بأن أولويات طموح الشباب العربي "الحصول على الوظيفة فقط" وإن كان هذا يُعتبرُ إنجازاً بحد ذاته ضمن هذه التحديات، فسحقاً لهذا الفكر وهذا الظن ولكل من يؤوله فكراً وظنّاً مُسقِطاً إياه على واقع الطموح الشبابي العربي؛ فطموح الشباب أبعد من ذلك بكثير فلا يزال محتفظاً بأحلام الطفل التي قُتِلَت ويسعى لتحقيقها مراراً وتكراراً، فلننظر جيداً إلى إنجازات الكثير من شبابنا التي ظلمها المجتمع من جديد بعدم تسليط الضوء عليها. وإن كان، فهو تسليطٌ بلا أيّ فائدة تذكر ودونما أي استثمار يليق بالعطاء وحب الحياة ومزيدٍ من التقدم والإبداع الذي يخلق التغيير والتأثير في محيطنا الشبابي العربي .

ليس طموح الشباب العربي اختلاق المقارنات بينه وبين شباب الغرب، فشتان ما بين احتضان كل مجتمع لِلَبنته الأساسية الذي إذا ما قارنت بينهما ستعرف حقاً معنى مسؤولية المجتمع، وإذا ما قارنت الشباب ستجد حلماً في الصغر بحقيقة مرة وإرادة جامحة تقلب الحقائق لتطبيق الأحلام، وإبداعاً يخرج من رحم المعاناة فم زال شبابنا ها هنا محباً للحياة لا يقبل الرجوع إلى الظلام دون إبداع .

بَدأت بصرخة الطفل في مجتمعٍ وَلَده من "الخاصرة" على واقع لا يليق به، واستمرت صرخته وهو يكبر مراهقاً وشاباً متمرداً بوجه الحقيقة وكل التحديات والصعوبات؛ فحلمه حقيقة وإبداعه من رحم المعاناة ليصرخ بأعلى صوته من جديد:

أنا كياااان

نعم هو كيان، فكفى اغتيالا للكيان وقتلا للشخصية، فلتعيدوا للطفولة كيانها وللشباب كيانهم. لا تجعلوا من عالم الشباب العربي عالَماً ذا أبعادٍ حجرية .

بل اجعلوه عالَماً شبابياً ذا أبعادٍ إبداعية وإنمائية كينونية.